فصلٌ في:

ترك إثارة الشر لا يأتي إلا بخير:

فالشر بلدة؛ لا سماء تظلها ولا أرض تقلها، لا في خضرائها مصعدا، ولا في غبرائها مقعدا، ضيقة البقعة مكروهة السكنى، الناس فيها يهرعون لا يجدون في الأرض نفقا، ولا في السماء مرتقى، إذا ناموا هالهم طيف، وإذا انتبهوا راعهم سيف، أرواحهم تسري بها الريح، ونفوسهم من شدة الهول كادت تطيح.

والأمن بلدة؛ مكارم الدنيا فيها مفروشة، كأنها الجنان على الأرض منقوشة، ترابها عنبر وحصاها عقيق، هواؤها نسيم وشرابها رحيق، بلدة واسعة الرقعة، طيبة البقعة، معشوقة السكنى، رحيبة المثوى، كوكبها يقظان، وجوُّها عُريان، نسيمها معطر، وترابها مسكٌ أذفر.

وأول الخير المرتجى؛ ما ذكره النبي المصطفى: سُئل ﷺ؛ أي النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ: «**مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ**»، قَالُوا ثُمَّ مَنْ، قَالَ: «**مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**»[1]، وعلى العكس قال: «**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»[2]، أي: لقبيح قوله وفعله.

وأما في الدنيا، فقد أخطأ من ظن أنه سبيل ذلة ومهانة، بل من الحكمة أحياناً أن تتحمل ضرراً يسيراً لينالك مكسباً عظيماً، والتهور وعدم إدراك عواقب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وفي رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «**إن شر الناس الذين يكرمون اتقاء شرهم**»؛ سبق تخريجه.

الأمور قد يسبب فتنة تزل فيها أقدام وقد يوقع المسلمين في شر عظيم، فالصبر على أذى يسير أحياناً يولد خيراً عظيم، وما الحرب إلا كرٌ وفر، وليس يسبق العاصفة إلا هدوء.

وإلا فلما اتقى النبي ﷺ القتال يوم الحديبية، مع أن في قتالهم مصلحة للمسلمين، ولم يكن من شأن ذلك إلا انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أضعاف ما كان أيام قتال المسلمين للمشركين، كذا قوت شوكة المسلمين وزادت منعتهم، ولما رد النبي ﷺ جندل بن سهيل يومئذ للمشركين مع أن في تسليمه لهم فتنة له في دينه ولم يكن من شأن ذلك إلا أن اعتصم وأبو بصير وأخرون بأعلى مكة وسببوا ذعرا لمشركي قريش وقوافلهم التي تروح وتغدو إلى الشام، في حين هنئ المسلمون في المدينة بعهدهم مع قريش، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم أن من أتاك فلا ترده[1]؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الفتح: ٢٤).

وها هو الرجل الذي قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال من يمنعك مني **قال: «الله عز وجل»**، فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك مني**» قال: كن كخير آخذ، **قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله»**، قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله، فذهب إلى أصحابه، قال: قد جئتكم من عند خير الناس[2].

وفي حديث اليَهُود الذين أَتَوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: «السَّامُ عَلَيْكُمْ»، فَقَالَتْ أم المؤمنين عَائِشَةُ رضي الله عنها: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمُ اللَّهُ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، قَالَ ﷺ: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**»، قَالَتْ: أَوَ لَمْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ ﷺ: «**أَوَ لَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»(١).

وقد ذكر **الإمام النووي** ـ رحمه الله ـ العلة من قول النبي ﷺ في أكثر من موطن للمنافقين الذين آذوه، وسمع منهم ما كرهه؛ «**لا يتحدث الناس أن محمد يقتل أصحابه**»، والعلة من قوله ﷺ، وعدم معاقبتهم كما قال **الإمام النووي** «رحمه الله»: «استبقاءً لانقيادهم، وتأليفاً لغيرهم، لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه فينفروا، وقد رأى الناس هذا الصنف في جماعتهم، وعدوه من جملتهم»(٢)، وقال في موضع أخر: «وكان ﷺ يتألف الناس، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم؛ لتقوى شوكة المسلمين، وتتم دعوة الإسلام، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة، ويُرغب غيرهم في الإسلام وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى، ولإظهارهم الإسلام»(٣).

وأما صبر النبي ﷺ على عبد الله بن أُبي بن سلول رأس النفاق رغم معادته له ﷺ ومكائده المتكررة، وصلاة النبي ﷺ عليه، فقد عللها **الحافظ ابن حجر** ـ رحمه الله ـ بقوله: «لما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته ومصلحة الاستئلاف لقومه ودفع المفسدة، وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو ويصفح ثم أمر بقتال المشركين، فاستمر صفحه وعفوه عمن يظهر الإسلام ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة الاستئلاف وعدم التنفير عنه ولذلك قال: «**لا يتحدث الناس أن محمد يقتل أصحابه**»، فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام وقل أهل الكفر وذلوا، أمر بمجاهرة المنافقين وحملهم على حكم مر الحق، ولا سيما وقد كان

---

(١) صحيح: (٦٠٣٠/ الأدب/ البخاري) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) (٤/ ١٧٠ شرح صحيح مسلم).

(٣) (٨/ ٣٨٣ شرح صحيح مسلم).

ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين وغير ذلك مما أمر فيه بمجاهرتهم»، وقال **العلامة الخطابي** «رحمه الله»: «إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبيّ ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم، فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سبة على ابنه وعارا على قومه، فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهى فانتهى»، وتابعه **ابن بطال** «رحمه الله» وقال: «رجا أن يكون معتقدا لبعض ما كان يظهره من الإسلام»[1].

وفي الباب أيضاً: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ، فَطَفِقَ النبي ﷺ يُعْطِي رِجَالاً الْمِائَةَ مِنَ الإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشاً وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ، فَأَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، قَامَ النبي ﷺ فَقَالَ: «مَا حَدِيثٌ بلغني عَنْكُمْ»، فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ: أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئاً، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشاً وَيَتْرُكُنَا، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَالَ النبي ﷺ: «**فَإِنِي أُعْطِي رِجَالاً حديثي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، أَتَأَلَّفُهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَذْهَبُونَ بالنبي ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، فَوَ اللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا [2]، فالنبي ﷺ لم يعنفهم أو يقرعهم، أو حتى يقاطعهم وينزوي عنهم جانباً، وقد يكون محقاً، وهذا قد يثير عليهم شراً، بل على

---

(١) (٨/ ٣٣٦ فتح الباري) بتصرف.

(٢) سبق تخريجه.

المسلمين ككل، لكنه ﷺ نزع فتيل الفتنة، جمعهم، وأزال ما في نفوسهم من ضغائن، أنزلهم منزلتهم، وأعطاهم جائزتهم، فما كان منهم إلا أن قالوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا»، فلله در هذه الحكمة والذهن الثاقب.

وسبق أن ذكرنا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكيف أنه اكتفى بالصبر والدعاء على الرجل الذي أذاه في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْداً إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّاراً، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّى، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّى قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فإني كُنْتُ أُصَلِّى بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، قَالَ ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلاً إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِداً إِلاَّ سَأَلَ عَنْهُ، ويثني مَعْرُوفاً، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِداً لِبَنِى عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْداً كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِى الْقَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: «أَمَا وَاللَّهِ لأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ، اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِباً، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ»[1].

الشاهد: أن سعدا رضي الله عنه اختار الصبر على أذى الرجل والدعاء عليه، وبها ونعم، فقد كان الرجل فيما بَعْدُ إِذَا سُئِلَ، يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أصابتني دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بن عمير ـ رحمه الله ـ؛ فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ للجواري فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ.

بل إن إثارة الشرور أحياناً قد تولد فحشاً عظيماً يصعب تداركه، فها هم الصحابة رضي الله عنهم لما سبوا أصنام المشركين وآلهتهم تجرأ المشركون على الله ﷻ،

---

(١) سبق تخريجه.

فنزلت الأيات: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٨)، وقد لَقِيَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما ابْنَ صَائِدٍ ـ الذي كان يظنه الصحابة الدجال ـ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ قَوْلاً أَغْضَبَهُ فَانْتَفَخَ حَتَّى مَلأَ السِّكَّةَ، فَدَخَلَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما عَلَى أم المؤمنين حَفْصَةَ رضي الله عنها وَقَدْ بَلَغَهَا، فَقَالَتْ لَه: رَحِمَكَ اللَّهُ، مَا أَرَدْتَ مِنِ ابْنِ صَائِدٍ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ غَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا**»[١]، تقصد الدجال.

فسالم الناسَ تسلمُ من غوائلِهم[٢] ... وكن حريصاً على كسب التقيّات

وخالقِ النَّاسَ واصبر ما بليتَ ... أصمٌّ أبكمُ أعمى ذا التقيّات

وذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني ـ المؤرخ، «رحمه الله» في تاريخه: أنه بلغ عضد الدولة ـ الخليفة العباسي ـ خبر قوم من الأكراد يقطعون الطريق ويقيمون في جبال شاهقة، فلا يقدر عليهم فاستدعى أحد التجار، ودفع إليه بغْلاً عليه صندوقان فيهما حلوة قد شبت بالسمِّ، وأكثر طيبها، وأعطاه دنانير وأمره أن يسير مع القافلة، ويُظهر أن هذا هدية لإحدى نساء أمراء الأطراف، ففعل التاجر ذلك، فنزل القوم وأخذوا الأمتعة والأموال، وفتحوا الصندوقين، فوجدوا الحلوى يضوع[٣] طيبها، ويدهش منظرها، فأمعنوا في الأكل عقيب مجاعة، فانقلبوا فهلكوا عن آخرهم، فبادر التجار إلى أخذ أموالهم، وأمتعتهم، واستردوا المأخوذ عن آخره، قال **العلامة ابن الجوزي** «رحمه الله»: «فلم أسمع بأعجب من هذه المكيدة، محت أثر العاتين، وحصدت شوكة المفسدين»[٤].

---

(١) صحيح. (٢٩٣٢/ الفتن وأشراط الساعة/ مسلم) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) المضرة البالغة.

(٣) يفوح.

(٤) (٢٣٣/ الأذكياء) بتصرف.

ومن الطُرفِ التي تذكر في مثل في هذا الباب، والتي تحوي معنىً صحيح:

قال **الشعبي** «رحمه الله»: مرض الأسد، فعاده السباع ما خلا الثعلب، فقال الذئب: أيها الملك، مرضتَ، فعادك السباع إلا الثعلب، قال: فإذا حضر فأعلمني، فبلغ ذلك الثعلب، فجاء، فقال له: يا أبا الحصين؛ مرضتُ، فعادني السباع كلهم، ولم تعدْني أنت، قال: بلغني مرض الملك، فكنت في طلب الدواء له، قال: فأي شيء أَصبْتَ؟ قال: قالوا لي: خرزة في ساق الذئب، ينبغي أن تُخرج، فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب، فانسل الثعلب وخرج، فقعد على الطريق، فمر به الذئب، والدم يسيل عليه، فقال له الثعلب: يا صاحب الخُفِّ الأحمر، إذا قعدت بعد هذا عند سلطان، فانظر ما يخرج من رأسك[1].

(١) (٢٣٣/ الأذكياء).